عندما يبكي الرّجال

نحن العرب من أكثر الشّعوب في العالم التي تؤمن بثقافة العيب، فنحن نردّد هذه الكلمة آلاف المرّات في اليوم الواحد: هذا عيب وذلك عيب، عيب عيب...

حتّى اختلط علينا الأمر فلم نعُد نُفرّق بين ما هو عيب أو ما هو ممنوع أو حرام، أو كما يقول المثل: "اختلط الحابل بالنّابل".

للأسف الشّديد أنّ معظم مواضيع حياتنا تخضع لكلمة "عيب" والخوف من النّاس. بدل أن تكون كلمة عيب رادعًا لكثير من التّصرّفات الغريبة أصبحت ظاهرة سلبيّة بحد ذاتها.

العيب ينبع من عادات وتقاليد كل مجتمع على حدة.

في محاضرة في الجامعة سألني أحد الطّلاب الأجانب سؤالًا. فاجأني من جهة وأثار اهتمامي من جهة أُخرى. كان سؤاله كالآتي: "هل يبكي الرّجال عندكم؟! ومتى يفعلون ذلك؟!".

أعادني السؤال إلى الماضي القريب والبعيد وأخذت أعود في ذاكرتي إلى المناسبات أو الأحداث التي جعلتني أبكي.

لقد علّمونا منذ الصغر أنّ الرّجال لا يبكون أبدًا، وأنّ البكاء مخصّص للنّساء فقط: "عيب إنك تبكي إنت زلمة"، "ليش بتبكي إنت مرا؟" وما إلى ذلك من أقوال ردّدها من ادّعوا الرّجولة الزّائدة.

"عندما يبكي الرّجال". قولٌ يصلح أن يكون عنوانًا لفيلم مصري من أفلام يوم الجمعة. جوابي كان لطالبي، بعد تفكير قليل، نعم يبكي الرّجال عندنا. يبكون علنًا، ويبكون خِفيةً.

أذكر أنني بكيت لأول مرّة عندما فقدت والدي فجأة. استغربت من نفسي فقد اجهشت بالبكاء أمام أولادي الذين انضمّوا إليّ وبكوا معي. لم يكُن الأمر

مُستهجنًا فالرّجال عندنا يبكون عندما يموت آباؤهم وعندما يفقدون أمهاتهم. عندها فقط يشعر الإنسان أنه قد كبر وهرم؛ عندما يفقد أمّه وأباه.

- يبكي الرّجال عندما يزوّجون بناتهم، نعم بناتهم! ما أصعب أن تترك ابنتك بيت أبيها إلى بيت غريب لم تعهده ولا تعرفه، فهي البنت التي كانت مدلّلة عند أبيها حيث علّمها وأدّبها. أحسن تعليم وأفضل أدب، ليهِبها إلى المجهول. يبكي لأنّه يشعر أنّه يتخلّى عن قطعة من جسده.
- يبكي الرّجال كثيرًا بسبب أبنائهم! أكبر مصيبة للأب أن يكون لديه ابنٌ عاقٌ، جاحد متعالٍ، يتطاول على أبيه وأمّه. يبكي عندما يحرج الابن أباه أمام النّاس وأحيانًا أمام أتفه النّاس، فيبكي الأب قهرًا وضيقًا وخيبةً.
- يبكي الرّجال عندما لا يتمكنون من إعالة عائلاتهم أو تأمين لقمة العيش لهم. يبكي الرّجال عندما يطلب منه ابنه قسط الدّراسة أو ثمن دواء أو مبلغًا لشراء حاجاته الأساسيّة.
- يبكي الرّجال عندما يحرمون من أوطانهم وأهلهم وأحبّتهم. يبكي الرّجل عندما يُسلب منه وطنه وبيته وهويته ما أصعب دمعة هذا الرّجل الذي فقد وطنه.
- يبكي الرّجال في الغربة، يبكون حسرة وشوقًا لبلاد تركوها بحثًا عن لقمة العيش أو مرغمين لا راغبين.
- يبكي الرّجال عندما يكبرون ويهرمون، آآه ما أصعب الكبر والشّيخوخة والشّعور بالعجز والتعلّق بالغير. يبكي الرجال على عمر ضاع هباء، يبكون عندما يرون صورهم وهم شباب يافعون، وما أكثر المردّدين: "ألا ليت الشّباب يعود يوماً".
- يبكي الرّجال عندما يشعرون بالحاجة إلى غيرهم، حتى لو كانوا أبناءهم. يبكون عند المرض، عند الألم.

- يبكي الرّجال ليلًا في الظّلام، يبكون في أسرّتهم يبكون صامتين، واجمين، يبكون ولا تخرج دموعهم، بل تخرج آهاتهم من قلوبهم، يبكون إنكسارًا وكرامةً. فيظهر أثر بكائهم في تجاعيد وجوههم وبياض شعرهم واهتزاز أجسادهم.

دمع الرّجال عزيزٌ، ليس سهلًا، فهو يبكي عندما يُقهر ويُظلم، وكثيرًا ما نتعرّض للظّلم هذه الأيام، خصوصًا مع تبدّل أخلاق النّاس وسلوكياتهم في عصر اللّامبالاة.

البكاء لا يعيب الرّجل فهو ليس دليلًا على ضعفه وانكساره، بل على مدى انسانيته وحبّه لمن حوله وتصالحه مع نفسه. إنّ الثقّة بالنّفس هي من أهم العوامل التي تساعد الرّجل على البكاء، وعلى أن يكون صادقًا في أحاسيسه.

الدموع نعمة من الله على الإنسان، فهي تغسل الألم ومشاعر الحزن لتقذفها خارج الجسم والقلب.

وكما تعلمون لا يمكننا أن ننهي مدونتنا دون طرفة:

ذهبتُ مرّة لزيارة عمتي، فألحّت عليّ أن أبيت عندها تلك الليلة. وقد سمعتُ من قبل حكايات أنّ منزل عمّتي "مسكون بالجنّ"..

بعد منتصف اللّيل أحسست بالعطش، فقمتُ من فراشي وقصدتُ المطبخ لأشرب، فإذا بي أصادف داخل المطبخ امرأة واقفة شعرها مبعثر، تلبس ثيابًا بيضاء.. ومن شدّة الهلع أمسكتُ المقلاة وضربتها على رأسها، ورجعتُ مسرعًا إلى غرفتي لأنام، غلبني النعاس رغم الخوف..

في الصباح لمّا استيقظتُ لم أجد عمّتي، سألتُ عنها، فقيل لي أنّ جنّيًا ضربها ليلة البارحة بمقلاة وهي الآن ترقد في المستشفى....

فبكيت بكاءً شديدًا على حظي التعيس.